سقطرى:
التراث والطبيعة
حيـن يصبحـان
فرصـةً للحيـاة



unesco
منظمة الأمم المتحدة
للتربية والعلم والثقافة

يتمويل من
الإتحاد الأوروبي

smeps
وكالة تنمية المنشآت
الصغيرة و الأصغر
Small&MicroEnterprise
PromotionService



في أرخبيل سقطرى حيث تتجاور الجبال والسواحل وتلتقي الحياة اليومية بواحدة من أكثر البيئات الطبيعية تميزًا في العالم، لا ينفصل التراث الثقافي عن الطبيعة التي نشأ في ظلها. فالألعاب الشعبية، والفنون المستلهمة من البيئة، والمعارف المتوارثة، واللغة السقطرية، تحفظ جوانب من ذاكرة المجتمع وعلاقته بالمكان. ويتميز الأرخبيل بتنوعٍ حيويٍ استثنائي، إذ توجد فيه أنواع كثيرة من النباتات والزواحف والقواقع البرية التي لا توجد في أي مكان آخر من العالم.

غير أن هذا الإرث يواجه ضغوطًا متزايدة. فتغير المناخ، وتدهور بعض البيئات، والتوسع العمراني، والاستخدام غير المستدام للموارد، إلى جانب الأنواع الدخيلة والسياحة غير المستدامة، تؤثر في النظم البيئية الهشة للأرخبيل وتهدد تنوعه الطبيعي. ولا تقتصر الحاجة إلى الحماية على الطبيعة؛ فاللغة السقطرية تحفظ في مفرداتها ومعارفها جوانب من علاقة المجتمع ببيئته، كما تحمل الممارسات الشعبية المتوارثة كثيرًا من تفاصيل هذه العلاقة. ومن أبرزها الألعاب القديمة، بأسمائها وقواعدها وما ارتبط بها من تعبيرات وذكريات انتقلت شفهيًا بين الأجيال.

من هنا تبرز أهمية الاستثمار في الشباب، بوصفهم حلقة وصل بين هذه المعارف ومتطلبات الحاضر. فمن خلال توثيق الموروث، وإحياء الممارسات الشعبية، وتطوير أعمال فنية مستوحاة من البيئة، يمكن أن يلتقي الحفاظ على الهوية مع اكتساب مهارات في التوثيق والمحتوى الثقافي والصناعات الإبداعية والسياحة.

وتأتي هذه المبادرات ضمن برنامج للمنح الثقافية تنفذه وكالة تنمية المنشآت الصغيرة والأصغر SMEPS بالشراكة مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة UNESCO في إطار مشروع: توظيف الشباب من خلال التراث والثقافة في اليمن، وبدعمٍ من بعثة الاتحاد الأوروبي في اليمن. وفي سقطرى تدعم هذه الجهود مشاريع ومبادرات محلية تربط بين صون التراث وتطوير مهارات الشباب، وتفتح أمام الثقافة والطبيعة حضورًا أوسع في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

حين تعود الألعاب إلى الحياة

في أحد الفضاءات المفتوحة في سقطرى اجتمع ٢٠ شابًا وشابةً حول ألعاب شعبية كانت مهددة بالغياب عن الحياة اليومية. وتلقى المشاركون، بينهم ١٤ شابًا و٦ شابات، على مدى أسبوعين تدريبًا على توثيق الألعاب الشعبية وممارستها، في محاولةٍ لإعادة وصل جيل جديد بممارسات عرفها الآباء والأجداد.

وضمن مشروع (توثيق الألعاب الشعبية السقطرية القديمة)، عملت مؤسسة سقطرى للتراث على جمع المعلومات من كبار السن في مختلف قرى ووديان الأرخبيل، ممن حفظوا هذه الألعاب وعرفوا تفاصيلها وقواعد ممارستها. وتمكن المشروع من توثيق ١٩ لعبةً شعبيةً، من بينها (مقليمة)، (مصرارة)، و(طيبانات).





وتحمل كل لعبة جانبًا من الحياة الاجتماعية التي نشأت فيها. فكانت (مقليمة) تُمارس في الأعراس والمناسبات الاجتماعية، فيما تقوم (مصرارة) على التنافس بين فريقين واختبار سرعة الاستجابة ودقة الرمي، بينما ارتبطت (طيبانات) بالترفيه والتحدي وقضاء أوقات الفراغ. وهكذا يستعيد التوثيق الألعاب وقواعدها، إلى جانب السياقات الاجتماعية التي جعلتها جزءًا من الحياة اليومية.

ولم يتوقف العمل عند تسجيل أسماء الألعاب وقواعدها، بل امتد إلى تصوير خطوات اللعب وأدواتها، وإنتاج فيلم قصير يوثق كلّ لعبة، وإعداد صور توثيقية ومنشورات توعوية على منصّات التواصل الاجتماعي. كما طُبعت منشورات تعريفية تتضمن مختصرًا عن كل لعبة وصورًا توضيحية لها، لتصبح هذه المعرفة متاحة في مواد يمكن الرجوع إليها ومشاركتها.



وإلى جانب الحركة والقواعد والصور، حفظ المشروع جانبًا من التراث اللغوي المرتبط بهذه الألعاب. فالأسماء والمصطلحات والتعبيرات التي انتقلت شفهيًا بين الأجيال أصبحت جزءًا من المادة الموثقة والمقدمة إلى الأجيال الجديدة، بما يربط اللعبة بلغتها وسياقها، لا بحركاتها وقواعدها وحدها.

ويشرح علي بسوسر، ٦٧ عامًا، من منطقة (دكسم) بحديبو، وهو أحد كبار السن والمدربين الذين أسهموا في تدريب المشاركين ونقل المعرفة بهذه الألعاب إليهم، أن اختيار الألعاب التسع عشرة وتوثيقها جاء لأنها كانت جزءًا من حياة الأجداد والأهل، لكنها بدأت تتراجع حتى أصبح بعض الشباب لا يعرفونها. ولجمع تفاصيلها وصل فريق المشروع إلى البواديي والمناطق المختلفة، واستمع إلى كبار السن ممن حفظوا هذه الألعاب وعرفوا قواعدها، ووثّق ما لديهم من معرفة بالصوت والصورة.



ويؤكد بسوسر أن أثر التدريب لم يبقَ داخل القاعة؛ فقد لاحظ حماس الشباب وإقبالهم على ممارسة الألعاب، حتى إن من لا يعرف لعبة كان يتعلمها ممن يعرفها. ويشير إلى أن ممارستها بدأت تنتشر بين الشباب في الساحل والبادية، بما أتاح لمن لم يكونوا يعرفونها فرصة التعرف إليها وممارستها.

ثم انتقلت المعرفة من التوثيق إلى التعريف والممارسة المباشرة. ونُظمت جولات توعوية في مجمع الكويت التربوي للبنات بمدينة حديبو، ومدرسة حافج الأساسية بضواحي حديبو، إلى جانب كليتي التربية والعلوم الإنسانية والتطبيقية بجامعة أرخبيل سقطرى. وخلالها تعرّف الطلاب إلى هذا الجانب من التراث السقطري وأهميته في نقل القيم والعادات بين الأجيال.

كما طُبعت ٢٠٠ نسخةً من مجلةٍ تعريفيةٍ عن الألعاب الشعبية، وُزعت على مدارس وجامعات في عاصمة الأرخبيل حديبو. ولم تبقَ هذه الجهود في نطاق المواد التوثيقية، بل امتدت إلى إعادة ممارسة الألعاب في بعض القرى والتجمعات، ومن بينها منطقة (دكسم)، حيث عاد عدد من المتدربين إلى لعبها وتقديمها أمام الجمهور، لتنتقل الألعاب من الذاكرة المسجلة إلى نشاطٍ يمكن مشاهدته وممارسته من جديد.

وتعكس تجربة أنهار مبارك، ٣٢ عامًا، من حديبو، وهي إحدى المشاركات في التدريب، هذا الانتقال من المعرفة الشخصية إلى التوثيق والمشاركة. فقد كانت تعرف عددًا من الألعاب قبل الدورة، بوصفها جزءًا من الألعاب والعادات التي مارسها الأجداد، ثم شاركت في توثيق وممارسة عدد من الألعاب ضمن المشروع، من بينها (دجاشل بو خمس أبهن)، (دجاشل بو حنججة)، (طيبانات)، (سجة)، و(مصعينة أو غميضة)، قبل أن تواصل ممارسة بعضها ومشاركتها مع أفراد أسرتها في المنزل.

وتقول أنهار: «كانت تجربة عظيمة، وكان فيها كثير من الشوق والحماس؛ لأننا كنا نلعبها بكل حماس، وكانت تذكرنا بأيامنا الماضية. كان فيها جو من التعاون والصبر، عندما يأتي الدور على كل شخص للعب». وتكشف شهادتها جانبًا من قيمة هذه الألعاب يتجاوز قواعدها؛ فهي ترتبط بذكريات اللعب الجماعي، وانتظار الدور، والتعاون والصبر، وتمنح المشاركين مساحةً للترفيه المشترك. وترى أنهار أن استمرار هذه الألعاب مهم لأنها تمثل جزءًا من الثقافة المحلية، وتقول: «من لا ماضي له لا حاضر له، ومن لا حاضر له لا مستقبل له».

ومع بدء الموسم السياحي الرئيسي في سقطرى في أكتوبر ٢٠٢٦، تتجه المؤسسة إلى التنسيق مع الجهات السياحية في الأرخبيل والجهات ذات الصلة لإدماج الألعاب الشعبية ضمن البرامج السياحية، إلى جانب وضع خطة لمواصلة زيارة عدد من المدارس وتقديم الألعاب والتوعية بها. ويفتح ذلك أمام هذه الممارسات مساحةً جديدةً للحضور خارج نطاق المجتمع المحلي. وهكذا انتقلت الألعاب الشعبية في هذا المشروع من ذاكرة مهددة بالتراجع إلى مادة موثقة، ثم إلى ممارسةٍ حيّةٍ ووسيلةٍ للتعريف بالتراث. ومع مواصلة التوثيق وتوسيع الممارسة وربط الألعاب بالمدارس والقرى والأنشطة الثقافية والسياحية، تتاح لهذه الممارسات فرصة جديدة لاستعادة حضورها في الحياة المعاصرة لسقطرى.



الطبيعة كمصدر للإبداع



في سقطرى لا تحيط الطبيعة بحياة الناس فحسب، بل توفر أيضًا مصدرًا غنيًا للإلهام. وفي مشروع (ألوان سقطرى: إرث الطبيعة على القماش)، حوّلت ٢٠ شابةً عناصر من البيئة السقطرية إلى تصاميم ومنتجات فنية تحمل ملامح الأرخبيل، وتجمع بين التعبير الإبداعي وإمكان الاستخدام اليومي.

نفذت جمعية سقطرى للحياة الفطرية المشروع ضمن برنامج المنح الثقافية، وتلقت المشاركات خلال شهر كامل تدريبًا على تقنيات الرسم على القماش، بدأ بالتعرّف إلى بعض عناصر التنوع الحيوي والتراث الطبيعي في سقطرى، ثم ترجمتها بصريًا إلى تصاميم. وشمل ذلك نباتات مثل شجرة دم الأخوين والخيار السقطري (قمحين)، وشجرة القارورة (تريمو)، إلى جانب عدد من الطيور السقطرية المتوطنة.

واختير الرسم على القماش لأنه يجمع بين المهارة الفنية والمنتج القابل للاستخدام، ويتيح في الوقت نفسه تقديم صور من الطبيعة السقطرية إلى الزوار والسياح في شكل يمكن اقتناؤه. وخلال فترة التدريب أنتجت المشاركات ٨٥ قطعةً موزعة على نحو ١٥ تصميمًا، شملت ٤٥ قميصًا، و٢٠ حقيبةً قماشية، و٢٠ شالًا.

وإلى جانب تقنيات الرسم تلقت المشاركات تدريبًا إضافيًا على تجهيز المنتجات وتسويقها وتغليفها، بما ساعدهن على تقديم القطع بصورة أكثر ملاءمة للعرض والوصول إلى المشترين. ومن بين المشاركات في التّدريب ريدان محمد، ٢١ عامًا، من مديرية حديبو، التي كانت تمارس الرسم كهواية وترسم على منتجات الفخار في أوقات فراغها. دخلت التدريب بحثًا عن فرصة لتطوير موهبتها وتعلم كيفية توظيف التراث السقطري في منتجات عصرية.

تقول ريدان: «تعلمت خلال التدريب تقنيات الرسم على القماش باستخدام الألوان الثابتة والفرش المناسبة، وكيفية نقل النقوش بدقة والعناية بتثبيت الألوان حتى تدوم. كما استفدت من التدريب في الجانب التسويقي وكيفية عرض المنتج بطريقة جذابة». ولم يتوقف تطبيق ما تعلمته عند التدريب؛ فقد أنتجت ريدان قميصًا مرسومًا يدويًا، ومقرمة نسائية، وحقيبة قماشية مزينة بنقوش مستوحاة من البيئة السقطرية. واختارت شجرة دم الأخوين مصدرًا لإلهام أحد تصاميمها، مستفيدةً من تفرعاتها الفريدة ولونها المميز. وتضيف ريدان: «شاركت بمنتجاتي في معرض مطار سقطرى الدولي، الذي نُفّذ ضمن أنشطة المشروع، وتمكنت من بيع بعض المنتجات بعد المعرض». ولم تقتصر استفادتها من التدريب على تجربة الرسم على القماش؛ إذ عادت بعده إلى الرسم على الفخار، وبدأت تطبق ما تعلمته في إنتاج قطع تجمع بين الأصالة واللمسة العصرية.



وجاء المعرض في توقيت رُتّب ليتزامن مع رحلة دولية إلى مطار سقطرى الدولي، بما أتاح عرض منتجات المشاركات أمام الزوار والسياح القادمين إلى الأرخبيل والمغادرين منه. وضم المعرض منتجات متنوعة من القمصان والحقائب والشالات، وأتاح لريدان وزميلاتها تقديم أعمالهن مباشرة للجمهور والتعرف إلى ردود فعله ومدى إقباله على اقتنائها، كما شهد بيع عدد منها.

كما عُرضت بعض مخرجات المشروع في فعالية Creative Vibes Aden والبازار المصاحب لها، ضمن أنشطة المشروع في مدينة عدن، على مدى أربعة أيام، أمام جمهور من محافظات يمنية مختلفة، ما أتاح التعريف بمنتجات المشاركات والوصول بها إلى جمهور خارج سقطرى، بوصفها أعمالًا مستوحاة من طبيعة الأرخبيل وهويته.

ولم يقتصر حضور المنتجات على المعارض؛ إذ أتيح عرضها كذلك عبر (دكان الطبيعة) في صالة المغادرة بمطار سقطرى الدولي، وهو منفذ تابع للجمعية تأسس عام ٢٠٢١، ويعرض منتجات طبيعية وأعمالًا من إنتاج المجتمعات المحلية، إلى جانب هدايا تحمل عناصر من الهوية السقطرية.

وتعتزم الجمعية الترويج لمنتجات المشاركات في التدريب عبر الدكان خلال الموسم السياحي الرئيسي لهذا العام في سقطرى، والمعروف بـ (الموسم الذهبي)، والذي يبدأ في أكتوبر ٢٠٢٦، بما يتيح لهذه المنتجات حضورًا أمام الزوار والسياح خلال فترة تنشط فيها الحركة السياحية في الأرخبيل.

وامتد أثر المشروع من اكتساب مهارة فنية إلى إنتاج أعمال فعلية وتجربتها أمام الجمهور وإتاحتها عبر قنوات للعرض والتسويق. ويقدم هذا المسار أساسًا يمكن البناء عليه لتطوير المنتجات وتوسيع حضورها في السوق، بما يفتح للصناعات الإبداعية المرتبطة بالهوية والطبيعة مجالًا قابلًا للنمو، ويتيح لعناصر البيئة السقطرية طريقًا آخر للحضور في الحياة المعاصرة.

من التراث إلى فرص جديدة

تجمع التجربتان في سقطرى بين صون التراث وتطوير مهارات الشباب؛ فمن الألعاب الشعبية التي عادت إلى الممارسة، إلى عناصر الطبيعة التي تحولت إلى تصاميم ومنتجات، يجد التراث طريقه من الذاكرة إلى التعليم، ومن المعرفة إلى الممارسة، ومن الإبداع إلى الجمهور.

وتوضح هذه التجارب أن حماية التراث لا تعني حفظه في الذاكرة وحدها، بل إتاحة فرص جديدة ليُمارس ويُعاد تقديمه وتطويره بما يلائم الحياة المعاصرة. وفي سقطرى يمكن للعبة قديمة أن تستعيد حضورها بين جيل جديد، كما يمكن لعنصر من الطبيعة أن يتحول إلى منتج يحمل هوية المكان.



وفي هذا الإطار تواصل وكالة تنمية المنشآت الصغيرة والأصغر SMEPS بالشراكة مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة UNESCO وبدعمٍ من الاتحاد الأوروبي دعم المؤسسات المحلية والشباب من خلال برنامج المنح الثقافية ضمن مشروع:

توظيف الشباب من خلال التراث والثقافة في اليمن، بما يتيح تنفيذ مشاريع ومبادرات تجمع بين صون التراث وتطوير المهارات وفتح مسارات جديدة أمام الثقافة والصناعات الإبداعية.



www.smeps.org.ye